الجنس في لغتنا العربية: الجنس هذا الحاضر الغائب فينا

د. نضال الأميوني دكاش
الجامعة اللبنانية الأميركية– لبنان

Sex in our Arab culture

Dr. Nidal EL-AMYOUNI DAKACHE
Lebanese American University – Lebanon

Abstract
This paper deals with the problematic of sex in the Arab culture, primarily through the analysis of the place of sex in the cultural and existential life of mankind. It is by sex that the reality of our existence is explained. Second, we discuss the abstraction of sex as object of damnation in our current Arab culture. In this we are going against the law of nature. Sex represents the beginning and end of all natural things.
However, it is important to outline that our earlier Arabic civilization did not dodged sex. Indeed our forefathers were libertarians. They discussed this issue without any complex. It is the same in our Sharia. Contrary to the belief of many of our contemporaries, talking about sex in Islam is not a sin and is not liable to punishment.
The problem of sex comes on top of the list of problems which troubles the Arab man in his present life. The history and the consciousness of the Arab man will stay paralyzed if he does not find a psychological and civilizational solution to this problem.

Keywords:
Arab culture, sex, human nature, Sharia, Islam.

Le sexe dans notre culture arabe

Dr. Nidal EL-AMYOUNI DAKACHE
Université libanais Américaine - Liban

Résumé
Cette étude traite de la problématique du sexe dans la culture arabe, à travers premièrement, l'analyse de la place qu'occupe le sexe dans la vie culturelle et existentielle de l'espèce humaine. C'est le sexe qui explique notre existence. Deuxièmement, nous débattrons de l'abstraction du sexe, objet par ailleurs, de damnation dans notre culture arabe actuelle. En procédant ansi, cela nous allons à l'encontre de la loi de la nature.
Le sexe constitue le début et la fin de toute chose naturelle. Notre civilisation antérieure, n'esquivait pas ce sujet. Nos aïeux étaient des libertaires. Ils débattaient sans complexe de cette question. Il en est de même dans notre charia. Contrairement à ce que pensent beaucoup de nos contemporains, parler de sexe en Islam, n'est pas un péché qui expose son auteur à une punition.
La problématique du sexe, constitue l'une des entraves les plus importantes qui trouble le vécu de l'être arabe. Tant qu'une issue psychologique et civilisationnelle ne sera pas trouvée à cette question, il sera considéré comme un handicapé, tant du point de vue de son histoire que du point de vue de son degré de conscientisation.

Mots clés :
La culture arabe, le sexe, la nature, la charia, l'Islam.

* تاريخ الإيداع : ماي 2012 * تاريخ القبول : نوفمبر 2012 ردمد :ISSN : 2170-1431

ملخص

يتناول هذا البحث إشكالية الجنس في الثقافة العربية وذلك من خلال : أولا- تحليل الأهمية البالغة لمكانة الجنس في الحياة الثقافية والوجودية للإنسان، فبه تفسر حقيقة وجودنا، وثانيا مناقشة حالة التغييب والقمع الحاصل للجنس في ثقافتنا العربية الراهنة، حيث نخالف فطرتنا. إن الجنس يمثل مبتدأ ومنتهى كلّ شيء في هذه الفطرة. لم يكن هذا التغييب حاصل في ماضينا الحضاري، فقد كان أسلافنا أكثر تحررا وأكثر جرأة في التعبير عن موضوعات الجنس وكذلك هو الحال بالنسبة لشريعتنا، فليس الكلام عن الجنس في الإسلام إثم يعاقب عليه كما يعتقد الكثير من معاصرينا.

إن مشكلة الجنس تقف على رأس المشكلات التي تؤرق الإنسان العربي في حياته الراهنة وسيبقى تاريخ الإنسان العربي ووعيه مشلولا إذا لم يجد مخرجا نفسيا وحضاريا لهذا الإشكال.

الكلمات الدالة : الثقافة العربية، الجنس، الفطرة، الشريعة، الإسلام.

مقدمة

عندما نعرف أن الجنس دشن تاريخ بداية الإنسان، وبه نستمر في الحياة، وعندما نعرف أنه أصل الوجود، وأصل كل موجود، وبه تفسّر حقيقة الوجود الموجود، لأنه يشكل قطبي كلٍ حركة، وكل ما هو موجود، في ثنائياته المتداخلة والمتفاعلة مع بعضها بعضاً، وأنه يشكل الطريق الأسلم، والوعي الأرقى، والأسلوب الأمثل لفهم كيفية ظهور الحياة، ومن خلاله نقارب حقيقة وجودنا، ونقترب من مصدر هذه الحقيقة. وعندما نعرف أنه شاغلنا، من حيث ندري، أو لا ندري، ومالىء أسماعنا، وعقولنا، ومشاعرنا، وكلماتنا التي بها نتحدث، وأحاديثنا التي بها نتواصل، وكتاباتنا التي نثير عبرها مواضيع مختلفة، وفيها نراوغ، ونستخدم مجازات، ونهرب من حقيقتنا، وهي كامنة فينا، ونغيّبها وهي جلية بنا... وعندما نعرف أنه يتقدمنا عندما نتذوق ما يثيرنا، ويحرّضنا على القيام بفعل ما، في تلون مشاعرنا، وتنوع أحاسيسنا، وينتشر فينا، نتأمل ما يحيط بنا، ونطيل النظر فيه. عندما نركّز سمعنا على صوت ما، يثيرنا بدوره، وأنه يسكننا ونحن نعتقد أنه مفارقنا على أكثر من صعيدٍ. وهو أسُّ كينونتنا، وفضاء معرفتنا الفعلي، وأننا المتواصلون مع بعضنا بعضاً، ساكنون في الحياة، مسكونون بها، يشار إلينا بـ(ألـ) التعريف، وهو ملحوق بنا، دون أن ندرك أنه (ألـ) التعريف فينا، وأننا نكرة من دونه، وهو اسم العلم فينا، و(ياء النداء) بداخلنا، وأننا به نكون، وبه نعدم، به نشقى، وبه نبقى، أو نرقى، به نكتشف المجاهل، ونعمق هوية المعلوم... وأننا من خلاله وعبره، نعثر على الإنسان الأول فينا، في حقيقته التي نحملها في تكويننا الجسدي، وعندما نعرف أننا بدلاً من أن نتستر عليه، ونزيد في تعتيم صورته، وطيّ بيانه العميق، وتغييبه بأكثر من طريقة في خطابنا

اليومي، وأشكال سلوكنا، في مختلف المواقع، ونتحكم به، ونتكلم عنه، ونحن نمارس ألوان الإستعارات والمجازات والتشابيه، خشية منه. وعندما نعرف أن أحدنا عندما يتكلم، في شأن من شؤونه، ويذكر، بخوف جلي، ويلتفت هنا وهناك خافضاً صوته... الى آخر ما هناك من أساليب الخداع للذات، عندما نعرف كل ذلك، يظهر لنا، إلى أي مدى هو كلي الحضور فينا، وأن غيابه حضور، وحضوره بداهة... والى أي مدى نزيّف أنفسنا ونبتعد عما يجعلنا الأكثر ممانعة للوجود، وأننا بعيدون عن إنسانيتنا، والى أي مدى نخالف حقيقة فطرتنا، أو حقيقة فطرنا عليها، وهي ضرورة أن نعرف ما حولنا، بعد أن نعرف أنفسنا، وذلك بتقليد وتجسيد الأولوهي فينا، ألا يقال إن الإله ساكن فينا، وأنه ينبهنا باستمرار الى ضرورة أن نعرفه، وأن معرفته تكون من خلال معرفة النفس، وتتكون بمعرفة حقيقة تكوينها، وأن معرفة تكوينها تقود الى معرفة فعل الإله فينا: تكوينه لنا، فهو مبتدأ ومنتهى الأشياء فينا... ذلك هو الجنس/المعرفة، الجنس/الخطاب، الجنس/اللغة، الجنس/الكلام، الجنس/الحركة. وكم هو مرعب لنا، عندما ندرك أنه مقموع فينا، وهو محركنا في كل فعل، ومعاقب عليه، وهو القرين الأمثل والأوضح لما نحن فيه من صواب أو خطأ، دافعنا الى ذلك، أو رادعنا، وأنه غير معترف به، وماضينا القريب وليس البعيد، يفصح عنه، ويؤكده، ويحارب بأكثر من طريقة، وشرائعنا التي ولدنا باسمها، ونتكلم من خلالها، واليها نحتكم، وبها نُعرف، تحض على الإعلان عنه، والتوسع في معرفته.. لأنه "لا يمكن للثقافة – ولم يكن بإمكانها أيضاً – إهمال الأشكال الإجتماعية للرغبة الجنسية وذلك عند تنظيم الجوانب القيمية لهذه الرغبة وبواعثها. وإن العلاقات المتبادلة بين الإتصالات الجنسية قبل الزواج وأثناءه هي أكبر مشاكل علم الإجتماع التاريخي المقارن المعني بدراسة السلوك الجنسي[1]. وهذا يعني ما ننفيه نؤكده، ونتوق اليه في صمت، ولا نمتلك القدرة أو الجرأة على البوح به، وكأننا نمارس قهراً ذاتياً، تعوّدنا عليه على أنفسنا، ورقابة صارمة على كل كلمة نقولها، وازدواجية معترف بها، في حالة كهذه مستديمة فينا.. وقد تمّ ويتم كل ذلك، بدافع وهمي لا وجود له، وهو أن الجنس شر، يجب الإبتعاد عنه، أو يلزم تجنبه، لأنه مصدر الآثام. وإذا سألنا: لماذا هو كذلك؟ لقيل: لأنه مصدر وأصل بلايانا ومصائبنا نحن البشر، وإذا دققنا في السؤال أكثر، وقلنا: أيُّ أصل يُتحدّث عنه؟ لقيل لنا: أليس هو أصل الخطيئة الأولى، أليس الجنس هو الذي طرد (أبانا آدم) من الجنة، أليست الشهوة هي التي دفعت ب (حواء) الى قطف الثمرة المحرمة، وأدى الى الكشف عن (سوءتيهما: عورتهما)، وكشف العورة أدى الى اشتهاء الجسد بعد الطرد من الجنة؟

1 – ا.س. كون. الجنس والثقافة، ترجمة منير شحود، ط 1 (سورية: دار الحوار، 1992)، ص 43.

دون أن يدرك هؤلاء أنه لولاه، لما كان لهم حضور. وأنهم في سلوكهم هذا، يخالفون حتى حقيقة وجودهم، بل وحكمة خالقهم، والآية التي تنص على أنه خلق الجن والأنس ليعبدوه. وهذا يعني لولا الذي تمّ، لما كان ما كان. وهذا يعني أن حكمة الخالق لا تُفهم في ظاهرها، إنما تفصح عن حقيقتها من الداخل وأن ما يمارس من سلوك، ويسرد من كلام، ويدوّن في كتاب، ويصاغ من أقوال، ويصدر من أحكام، تربط الجنس بالخطيئة، مخالف للحكمة تلك.

نعم لنا الحق في أن نسأل عمن سأل عن الجنس باعتباره إثماً يجب تجنّبه، وإعلان الحرب عليه، وجريمة يجب استئصال جذورها، ولنا الحق في أن نسأل عن أصلنا "أنطولوجياً" عن كيفية نشأتنا، وعن ذلك الفراغ الملتهب والعميق الذي يفصلنا عن جذور كينونتنا الأولى، ففي سؤال كهذا، حقيقة الكينونة، وكينونة الحقيقة تبزغان وتتجليان. وقد كان أسلافنا الأول أكثر ذكاء واجتهاداً منا، وأكثر تحرراً وأكثر قدرة على الإبداع والإرتباط بالواقع، وكانوا أكثر جرأة في السؤال عن الوجود وأصل الموجود، وخالق الوجود والموجود. لا لأنهم كانوا الأكثر تميّزاً عنا وتمايزاً منا بالعقل، وإنما لأنهم وُجدوا في ظروف ووضعيات معاشية، ساعدتهم على ذلك، حتى أولئك الذين أبدعوا أساطير عن التكوين والجحيم والفردوس، امتلكوا مرونة هائلة في التفكير، والتمعن في الكون، أكثر منا.

أوليس من المرعب أننا بقدر ما نتقدم في التاريخ، نزداد جهلاً بوجودنا، وتمارس رقابة أكثر تسلطاً على وجودنا هذا، واختزالاً لحقيقتنا، ويكبر حجم اللامفكر فيه، ونصبح كائنات فيزيولوجية، على اكثر من صعيد؟ أوليس من المرعب أن نجد كل هذا الإفقار، هنا وهناك، بخصوص الجنس، ويشكل بعداً جوهرياً من أبعاد شخصيتنا الإنسانية، بما يمتلكه من طاقات أو إمكانات، تتحكم فينا، أو تعشعش في خلايانا، وتتأصل في أصل قوانا، ونظرتنا الى الوجود، والى أنفسنا، والآخرين؟ وإن لم يصرَّح به في اللغة العربية قديماً. ولكنه تأصَّل في كل الصفحات التي تلتقي فيه وعنده بشكل ما.

إنه الحبّ ولكنه تصعيد بمعناه، بحيث تتوزع اللذة، في كل خلايا الجسم، وفي المشاعر والأحاسيس والدماغ، وهو العشق، حين يتركز على كائن يعينه، وتصبح اللذة هنا معنوية (ماورائية ميتافيزيقية) وإلى جنس وهذا يتحقق في الوصال مع الآخر، الذي يكون الأنثى.

والجنس عشق، والعشق، من وجوهه (الوصل، وهو خط رفيع، ومرتبة سرية، ودرجة عالية، وسعد طالع. بل هو الحياة المجددة، والعيش السني، والسرور الدائم، ورحمة من الله عظيمة) كما يقول فقيه إسلامي مشهور، هو ابن حزم

الأندلسي[2].

أليس مرعباً أن نرى ونتلمس ذلك الإفقار في اللغة المدوّنة، والغنى الملموس في اللغة المحكية، على أكثر من صعيد، وتداوله، وانتشاره في الحياة اليومية، كما في كلمات: الجماع والمواقعة والمضاجعة والحرث وغير ذلك من الكلمات الأخرى، التي تعبّر عن حضور الجنس، وفاعليته...

والمدقق في اللغة العربية، سوف يكتشف أن هناك مئات الكلمات المباشرة، تخص الجنس، وغير المباشرة، تذكرنا به، وإذا أضفنا الى ذلك كل الكلمات التي يستخدمها العامة بحياء، تتعلق بأجسام طويلة، أو غليظة باعتبارها تقترن بالأعضاء الجنسية، أو تذكرنا بها، لأصبح الرقم كبيراً. ولعل الرجوع الى كتاب (الروض العاطر في نزهة الخاطر) للشيخ (النفزاوي)، هو الذي يؤكد ذلك[3]. وهذا يعني مدى اهتمام العرب بالحياة الجنسية، واللغة هي خير مدخل لمعرفة ذلك.

ودراسة تاريخ اللغة العربية، وكيفية تطورها، من الناحية الجنسية، تعطينا الكثير من الفائدة، كما أن اهتمام الفقهاء بظاهرة الجنس، وتناولها من النواحي كافة يؤكدان لنا على أن الجنس لم يكن عادياً في حياتهم، ويؤكد حرصهم على فهمه علمياً – خاصة عندما اتسعت حدود الدولة العربية – الإسلامية. واغتنت اللغة العربية، وأصبحت الحاجة الى دراسة المستجدات في الحياة العامة، وخاصة فيما يتعلق بالجنس، حيث أصبح علماً قائماً بذاته، له شروطه وقواعده، بل له لغته الخاصة، وأجواؤه، لأنه يقوم على رؤى وتصورات ونشاطات، تشكل حقيقة الإنسان، سرعان ما أدى الى تشكل سلطة، ترتبط بالجنس. وكان له دور كبير في رسم الكثير من الإستراتيجيات الوظيفية في المجتمع. ولم يكن هناك ثمة مانع للتفصيل في هذا الميدان الخطير والرحب والحساس، بعد أن أصبح قوة حاسمة، وسلطة تراقب وتعاقب، تكشف وتحجب...

ولعل ما ذكره الإمام الحافظ (ابن قتيبة الدينوري) له دلالته هنا، فقد كتب في مقدمة (عيون الأخبار): "وإذ مرّ بك حديث فيه إفصاح بذكر عورة أو فرج أو وصف فاحشة فلا يحملنّك الخشوع أو التخاشع على أن تصغر خدّك وتعرض بوجهك فإن أسماء الأعضاء لا تؤثم. وإنما المأثم في شتم الأعراض وقول الزور والكذب وأكل لحوم الناس بالغيب".[4]

2 – ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة (بيروت: مؤسسة ناصر للثقافة د.ت) ص 99.

3 – النفزاوي (1990). الروض العاطر في نزهة الخاطر، حققه ووضع هوامشه وعلق عليه جمال جمعة (بيروت، لندن: رياض الريّس للكتب والنشر)، ص 93 – 94، 105 – 106.

4 – كما جاء ذكره في مقدمة الكتاب المذكور ، ص 9.

ولذلك فمن الممكن القول إن هناك إمكانية لطمس هوية الرغبة الجنسية، لإخفاء حقيقة الجنس، لتجاهل (الكاماسوترا: حكم الرغبة)، ولكنه يستحيل تجاهل عمل هذه الرغبة المذكورة، يستحيل تجاهل مؤثرات فاعلية الجنس في الجسم. ولولا الجنس لما كان الوقاع، ولولا الوقاع لما كان الولد، ولولا الولد لما استمر جنس الإنس، مع العلم بأن الله قادر على خلق الناس دون عملية التزاوج، ولحكمة أرادها كان هذا الأمر5، كما قال الغزالي.

والإنسان الذي يكشف ذاته عبر الآخر، ويشعر بدفق الصيرورة في كيانه، وبامتلاكه الحي للكينونة، يحتاج الى لغة تساعده، لتحقيق مثل هذه العملية. وأكثر الناس قدرة على سرد مفردات الجنس، وإغناء مفاهيمه، هم الذين كانوا الأكثر تمنعاً في حقيقته، ومعايشة له. أي إدراكاً لأهميته في إعطاء معنى للحياة. وما يثبت هذا التصور– كما سنرى – هو أن القرآن غني بالحضور الجنسي: من حيث وصف مشاهد له، أو ذكره من خلال تشبيهات، ومجازات، وخاصة في علاقة الرجل بالمرأة، أو المرأة بالرجل، أو في الحديث عن نساء الجنة. ومن ثم تأتي الأدبيات اللاحقة التي تعمّقت وتوسعت في هذا المجال، وهذا يؤكد البعد المعرفي الإستراتيجي في الجنس، في الإسلام، والأرضية التجريبية له. باعتباره يؤكد وظيفة الخالق، في فعل المخلوق، وحقيقة التكوين في وجود المخلوق.

واللذائذ تتجاوز دينونتها، أو حدود الجسدي الضيقة، إنها تدفع بصاحبها الى تجاوز المادي فيه، والضيق مكانياً منه، تحرضه على اكتشاف الأشياء، والمجاهل... وهي – بهذا المعنى – لا تنفصل عن الجنس – ولهذا كانت وجاءت هذه الرقابة – كما نعرفها الآن، على الجنس، وخاصة في ربطه بالدين والسلطة. فالجنس سلطة ضد السلطة، اي يساعدنا على تعرية كل سلطة في الواقع المعاش، وباعتباره يلغي كل الإعتبارات أو الإمتيازات التراتبية او الطبقية، أو يلغي الفوارق بين كائن وآخر، ومعرفة ذلك، تفضح تلك القدسيات التي يغلّف بها ذوو السلطان أجسادهم، والكشف الجنسي دليل ممتعٍ ومثير، لمعرفة ما يجري في الغرف المخصصة للجنس، لهؤلاء، ويجعلهم أناساً عاديين. هكذا ينشط خطاب الجنس، على الصعيد اليومي، وفي صمت محروس، أو في أمكنة معزولة ومحروسة بدورها، لتحقيق التراتبية المسيّسة، نعم (لقد حُدّد بشكل أكثر صرامة أين ومتى لا يمكن الحديث عن الجنس، أين ومتى يجوز الحديث عنه، في أية مناسبة، بين أي متحدثين، داخل أية روابط إجتماعية. لقد أنشئت مناطق احتشام وذوق، إن لم يكن مناطق صمت مطلق، مثلاً: بين الأبوين

5 – نقلاً عن: هشام قبلان(1983). آداب الزواج في الإسلام، بيروت: منشورات عويدات – بحر المتوسط، باريس، ص 41.

والأبناء، بين المربين والطلاب، بين الأسياد والخدم. وحصل في هذا المجال بكل تأكيد نوع من اقتصاد تقييدي[6].

أوليست معرفة أن (فلاناً) من الساسة، أو ذوي السلطان، يمارس حياة جنسية، وينوع فيها، انطلاقاً من امتيازات اجتماعية وسياسية، تقلل من قيمته، وتختصره في بُعد جسدي واحد، وتفقده هيبته؟

وإذا لم يكن الوضع كذلك، فلماذا هذا التحريم وخاصة إذا علمنا أن المنع المحروس يرتبط بالدرجة الأولى، بالقائمين على امورٍ ذات صلة مباشرة بالدين، وكأن الدين – بهذا المعنى – أصبح بدوره حكراً عليهم، وإلى جانبهم يقف المتنفذون، من رجالات السياسة، أو أولي الأمر، في مختلف الوظائف الحكومية الحساسة!

هكذا يفقد الخطر الموجّه كل تبرير شرعي له ولعلّ ذكر مجموعة من الكتب التراثية، التي لا يُشك في المكانة الفكرية والسلوكية والعلمية لمؤلفيها، هو الذي يدعونا الى تأمل خلفية هذا الخطر الموجه، وهذا الإبتعاد عن فهم حقيقته:

- طوق الحمامة في الألفة والألاف – لـ (ابن حزم)
- مصارع العشق لـ (السراج)
- القيان – لـ (الجاحظ)
- نزهة الجلساء في أسعار النساء لـ (السيوطي)
- روضة التعريف بالحب الشريف... لـ (ابن الخطيب)
- العقد الفريد – لـ (ابن عبد ربه)
- المحاسن والأضداد لـ (الجاحظ)

وهناك كتب أخرى، تركّز على الجنس، وتعتبر في أيامنا من الأدب الإباحي الماجن، وهي كتب تراثية مؤلفوها فقهاء، وشيوخ دين، يعتد بهم. ويمكن اعتبارهم من مؤسسي علم الجنس في الإسلام، وهي تدخل ضمن إطار ما يمكن أن نسميه بـ (أركيولوجيا الجنس في الإسلام)، ومنها بشكل خاص:

- نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب لـ (شهاب الدين أحمد التيفاشي).
- تحفة العروس ومتعة النفوس لـ (محمد بن أحمد التيجاني)

6 – فوكو، إدارة المعرفة، ص 39.

– الروض العاطر في نزهة الخاطر لـ (أبي عبد الله بن علي النفراوي)[7]

وعندما نقرأ ما يكتبه محقق كتاب (الروض العاطر): "ومن المؤسف أننا لم نحتفظ بكل شيء، ففهرس ابن النديم يعطينا في نهاية القرن العاشر عناوين مائة دراسة فقدت كلها. والبعض ما يزال على شكل مخطوطات في الخزانات العمومية أو الخاصة، الغربية والشرقية"[8]، تبدو مساحة القمع والمنع كبيرة، ومرعبة. ويظهر لنا مدى العسف الذي يمارس، ضد أهم بعد من أبعاد الإنسان، بل مدى الجهل الذي يعاش به.

وهذا يعني توسيع قاعدة المكتوب، بل ربط الحاضر بالماضي (الماضي الذي كان الجنس يقرأ، ويستقرأ أو يستنطق في حضوره الأعمق، ويعاش بأقل قدر ممكن من الحجب)، وهذا يتطلب الكثير من المرونة الفكرية، والإنفتاح العقلي، والإستعداد النفسي، لأنه ليس بالإمكان استيعاب الغاية من هذه المحاولة، في جوّ تسوده أشكال حظر ومنع مختلفة.

ولكي نفهم الجنس في أبعاده المختلفة، ارتأينا تناوله من خلال العناوين الرئيسية التالية:

1 – مسرح الجنس

2 – مسرح الجنس والدلالات المحيطة به

3 – ثنائية الجنس والعلاقات القائمة بينهما

4 – الجنس بين بُعديه: الدنيوي والأخروي، في القرآن..

1 – مسرح الجنس

فكرة خلق الإنسان، فكرة قديمة. وحسب ما يقوله لنا فراس سواح، "فإن الأسطورة المتعلقة بخلق الإنسان هي أقدم أسطورة وصلت إلينا عن هذا الموضوع".[9]

ومضمون الفكرة هذه، هو أن الإنسان خُلق لخدمة الآلهة، ثم الإله الواحد لاحقاً، ولكن الذي يهمنا هو، تلك الصورة التي أعطيت للإنسان، عن كيفية خلقه، ثم تطور هذا الإنسان، وهو من طين. وفكرة خلق الإنسان من طين، نجد

7 – الكتب الثلاثة الأخيرة، صدرت عن شركة رياض الريّس للكتب والنشر في بيروت وسط تعتيم إعلامي رسمي شبه شامل، وهي حتى الآن ممنوعة من التداول في أغلب الأقطار العربية، وخاصة كتاب: الروض العاطر في نزهة الخاطر. وهذا يشير الى سعة الطوطم المحرم، و(التابو) الممنوع الإقتراب منه.

8 – انظر مقدمة كتاب: الروض العاطر في نزهة الخاطر، ص 14.

9 – فراس سواح (1976): مغامرة العقل الأولى: دراسة في الأسطورة، سورية أرض الرافدين، ط 1 دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ص 49.

لها ترداد في أدبيات شعوب كثيرة[10]. إذ بعد صنعه، نفخ في أنفه ليحيا، فالإنسان في البداية لم يكن يعرف شيئا. فقط خلق، ليخدم الآلهة، كما تقول الأسطورة السومرية[11].

ونجد لاحقاً، في الإصحاح الأول، من سفر التكوين صورة أوضح عن كيفية خلق الإنسان "وقال الرب نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا. فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض. فخلق الرب الإنسان على صورته. وعلى صورة الرب خلقه ذكراً وأنثى خلقهم. وباركهم قال لهم أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض"[12].

ومن المفيد أن نذكر هنا، أن البشرية احتفظت بصورة نقية عن عصر غابر، يمكن تسميته بعصر البراءة الأولى، حيث لم يكن هناك همّ أو قلق وجودي، أو مرض، أو عداوات معينة. ومثل هذه الصورة، تشكل لدينا وثيقة حية عن جنس الإنسان الذي كان بعيداً عن الهموم والوساوس، وذلك من خلال مكان يسمى بدلمون، أو (تلمون) الذي تعتبر فردوس الإنسان الأول، في عرق البابلي، وذلك عبر مخاطبة إلهين، يتكرر ذكرهما في الأسطورة[13] –أنتما – كانت تلمون نقيا.

ولكن إضافة إلى خلق الإنسان من طين، ووجوده في ارض دلمونية، أو تلمونية، حيث السلام التام يعم المكان، احتفظت الذاكرة البشرية بفكرة أخرى، عن جنس الإنسان، تختلف عن خلق الإنسان، على شاكلة الرب (كما جاء في سفر التكوين) – أو خلق حواء من ضلع آدم، من سفر التكوين نفسه، ومضمون هذه الفكرة، هو ما يتعلق بالخنوثة. (وليست فكرة الخنوثة غريبة عن الوعي الأسطوري أيضاً، هذه الفكرة التي تهدف الى جمع البدايتين المذكرة والمؤنثة في كل واحد. وقد اعتبرت آلهة كثيرة حاملة للقوة المذكرة والمؤنثة. فهذا "هيرمافروديت" ابن "هرمس" و"أفروديت" في اليونان القديمة، وفي الهند القديمة الإله "أديتي" أو البقرة – الثور، أم وأب جميع الآلهة الآخرين، وفي مصر القديمة يمثل الإله رع الذي جامع نفسه هاتين البدايتين (سقطت البذرة في فمي نفسه)

ولعل مثل هذه الفكرة، كانت تعبر عن مقارنة الذهن البشري لأصل الإنسان

10 – المصدر نفسه، ص 47 – 52.

11 – المصدر نفسه ، ص 55.

12 – المصدر نفسه، ص 190.

13 – انظر: فرانكفورت وآخرين، ما قبل الفلسفة، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا، ط 2 (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1980)، ص 188 وكذلك: المعتقدات الدينية لدى الشعوب، تحرير جفري بأرندر، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، مراجعة عبد الغفار مكاوي، سلسلة عالم المعرفة (الكويت، 1993)، ص 22 – 23.

الأول وكيفية نشوء الإنسان، ووضوح ملامحه، وتفاصيله مورفولوجياً بالدرجة الأولى. ويمكن أن نجد صوراً للإنسان الأول، أو عن كيفية خلقه، في بداياته الأولى[14].

ولكن يبدو أن الوصول الى هذه المرحلة، استلزم الكثير من الوقت والمحاولات العديدة، ليدرك الإنسان من يكون هو، وليحاول التعرف على نفسه، ومن ثم ليستطيع التمييز بينه كذكر، والآخر كأنثى... والفكرة التي يفلسفها أفلاطون في كتابه (المأدبة)، تبدو مغرية في هذا المجال. فهو يتحدث لنا عن كائن خارق القوة، كان يدب على أربع، ويرى في كل الإتجاهات، ويحمل في ذاته مبدأي الذكورة والأنوثة معاً. وكان ذلك يعني بقاءه قوياً معافى (يشعر بالملل، ولا يهاب أحداً). ومثل هذه الحالة أرعبت الآلهة. ومن هنا بدأ التفكير، للقيام بطريقة، تسمح بإضعاف هذا الكائن. ونجحت الطريقة، وذلك عندما تمّ فصل الكائن هذا الى نصفين: أحدهما ذكر والآخر أنثى. وربما كان بحث كل من الجنسين عن الآخر، واشتياقه إليه، وتمسكه به، على أكثر من صعيد، تأكيد لحيوية هذه الفكرة، وذلك من خلال الحب.

وربما كان اعتقاد الإنسان (هذا النصف المقطوع والمستضعف) في حبه لله، الذي يشير الى القوة المطلقة، واشتهائه للقائه، محاولة جادّة للإتحاد به، لأنه لا بدّ أن يكون الذي قسم الكائن الى نصفين، وأبعدهما عن بعضهما بعضاً، أكثر كمالاً وقوة. بل يكون الكمال عينه، والحبّ ذاته، والسعادة نفسها. والإرتقاء الشهوي، بالمعنى المعنوي الروحي الى الله، هو محاولة لتجاوز النقص الكامن في الإنسان، ونشدان الكمال.

لهذا كان تأكيد (يونغ) على وجود الأنثوي في الرجل، بمفهوم بـالأنيما، والذكوري في المرأة، بمفهوم سماه بـالأنيموس، وهذا يفسر انجذاب كل منهما للآخر...

ولعلنا إذا دققنا في مفهوم الجنس تاريخياً، لرأيناه فاعلاً، وعنصراً رئيساً، كان سبباً أساسياً، لاكتشاف الإنسان لنفسه، ومعرفة ذاته، وذلك من خلال الإتحاد بنصفه الآخر.

ففي الأدب السومري الذي يرجع الى أكثر من أربعة آلاف عام، احتلّ الجنس مكانة رئيسة في أعراف الشعب السومري، وكان تقليداً للطبيعة، كان عبارة عن طقس مقدس، ولكنه في الوقت نفسه، كان يشير الى مرحلة تاريخية، عبّرت عن

14 – انظر: بول فريشاور: الجنس في العالم القديم، ترجمة فائق دحدوح، ط 1 (دمشق: دار الكندي، 1988)، الجزء الأول: الحضارات الشرقية، ص 26.

تقدم الإنسان ووعيه لما حوله. والأوصاف الجنسية التي نقرأها في هذا الأدب، كانت استمراراً لما تظهره الطبيعة من تحوّلات، ومظاهر نمو وتجدد فيها... هكذا نقرأ قصة (إينانا) ومعناها (ملكة السماء) والتي تقابل (عشتار: عيش الأرض) مع (دموزي) ومعناه (الإبن البار، أو الأمين او المخلص)، وهو راع، وتفضيله على (أنكيمدو) الفلاح، حيث عبرت هذه القصة عن بداية البشرية، عن حالة التطابق مع الطبيعة، وتقليدها...[15]

ولعل الدعوة الى التلذذ بجمال الجسد الأنثوي، والإحساس بعالم مغاير من خلاله، كانت تشكل علامة مميزة، من علامات إنسان العالم القديم. فالجنس كان احتفالياً، كان خلقاً إبداعياً.[16]

ولا يمكننا تجاهل ملحمة (جلجامش). فحضور الجنس فيها قوي. فالجنس هو الذي يشكل المنعطف الكبير في حياة الإنسان، أي يجعله مدنياً. إنسان المدنية الأولى، والمدرك لحقيقته كإنسان.

وهو يجعل الإنسان يتواصل في الوجود، ولكن عن طريق الإتحاد بنصفه الآخر (أي الزواج). فبالنسبة الى الفكرة الأولى، تعلمنا الملحمة عن تعليمات الصياد للبغي، بخصوص (أنكيدو) الوحش، صديق الحيوانات.[17]

ومما يجدر ذكره، هو أن العلاقات الزوجية، والنظرة الى الآخر نظرة الذكر الى الأنثى، وبالعكس، والتشريعات التي وضعت لقوننة هذه العلاقات، تطورت مع تطور البشرية. فمن هيمنة النظام المتريركي (سيطرة المرأة على الإنتاج وعلاقات الإنتاج)، أو ما يسمى بـ (المجتمع الأموي)[18]، الى وجود تنافس بين الرجل والمرأة، وزحزحة المفاهيم التي تبرز فيها المرأة: قيمة ومكانة، وإحلال القيم المتمثلة بالرجل، ثم بروز سلطة الرجل، بشكل واضح، ووضوح العلاقات أكثر فأكثر بين الجنسين، لصالح سلطة الرجل، وحتى المسيحية التي بدت فيها سلطة النساء، من خلال السيدة العذراء، التي حلت محل الأمّ الكبرى أو القوة الإخصابية الكونية المتمثلة بإلهة الحبّ العذراء، والتي دعيت (بسيدة السماوات وهو اللقب الرئيسي للإلهة عشتار)[19]، ولكن المخيلة الرجولية

15 –س. كريم، إينانا ودوموزي: طقوس الجنس المقدس عند السومريين، ترجمة نهاد خياطة، ط 1 (قبرص: سومر للدراسات والنشر والتوزيع، 1986)، ص 91 – 92.

16 – المصدر نفسه، ص 129.

17 – طه باقر: ملحمة كلكامش (العراق)، ص 43.

18 – راجع حول ذلك: فراس سواح، لغز عشتار: الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة (قبرص، نيقوسيا: سومر للدراسات والنشر والتوزيع، 1985)، ص 31 – 60.

19 – سواح، مغامرة العقل الأولى، ص 47.

أبعدت المرأة عن السلطة بطريقة أدبية ممسرحة، وهي تحويل السيدة العذراء الى الروح القدس، فبقي السيد المسيح ملفوظاً كما هو كرجل، كانت الشرائع تتعدل وتتحور، وتتوضح العلاقات بين الرجل والمرأة، الزوجية منها خاصة، ويتم التخلص بالتدريج من كل قانون، أو تشريع، يسمح بالتزاوج بين المحارم. ولعل قانون كشف العورة، الذي جاء في التوراة، يشكل أساساً صلباً، أخذ بعين الإعتبار، وتمّ التقيّد بمضمونه في المسيحية، وفي الإسلام فيما بعد: (عورة أبيك وعورة أمك لا تكشف)[20].

ولكن العلاقات الزوجية ظلت تفصح عن سلطة الرجل، وخاصة في الإمتيازات الإجتماعية التي كانت تعطى له، أو كان يحاول التشبث بها، والدفاع عنها. وظلت المرأة تشكل قيمة متدنية في المجتمع، ومعها كانت الأنثى رخيصة، يُتخلص منها بسهولة، كما في حال وأد البنات في الجاهلية قبل الإسلام، وظاهرة تعدد الزوجات، وتنوع حالات الإتصال بالمرأة، عبرت عن وجود سلطة قاهرة للرجل..

وحين ظهور الإسلام، ترى كيف تصدى القرآن لهذه المشاكل التي كانت مشاكل متجذرة في الواقع؟ وكيف عبرعنها؟ وكيف تواصل مع المرحلة السابقة عليه، واستطاع التعبير عن حيثياتها؟

كانت مشكلة خلق الإنسان، أو الجنس الإنساني، أوجينياليوجيا، من أهم المشاكل التي وجب على القرآن التعبير عنها، ومسرحة فكرتها، وتقربها من الأذهان، ليثبت من ناحية أنه جاء بلغة مفهومة، وليثبت من ناحية ثانية أنه جاء بلغة، تتقاطع مع اللغة السابقة عليها، في دلالاتها، أو في بعدها الثقافي أو الإجتماعي أو الجنسي، أو الكوني.

وكانت مشكلة العلاقات بين الجنسين (الرجل والمرأة) تستدعي مرونة هائلة في التعامل معها، وقدرة كبيرة في التصدي لها، واستراتيجية فاعلة، لتحقيق بناء المجتمع المرغوب فيه (قرآنياً).

وكانت مشكلة الجنس نفسه، الجنس المتعلق بالمرأة، ودورها الكبير في استقطاب الرجل، واكتساب وده، ودفعه للسير في طريق الإسلام، الى نهايته، من المشكلات الصعبة بدورها، وذلك بتوجيه أنظار الرجل الى عالم أكثر إغراء،

20 – فريشاور، الجنس في العالم القديم، ص 250. وسوف نجد هذا التحديد بتكرر في القرآن، ومع التسمية، وذلك في سورة النساء، الآية 23: "حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم التي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وان تجمعوا بين الأختين الا ما قد سلف إن الله كان غفوراً رحيما"

من العالم المادي، كجزء أساسي من استراتيجية الإسلام، في إيجاد العالم الذي يشعر فيه الرجل، أنه يؤكد فيه (جسديته)، رغبة الأبدية بقوة.

2 -أصل الجنس والدلالات المحيطة به

لا وجود لمفردة (الجنس) في القرآن، ولأن هذه الكلمة لها حضور قوي في أذهان العامة والخاصة. ولأنها تثير معاني كثيرة، يصعب الإلهام بها، او استيعابها، دون الرجوع الى أصلها تاريخياً. فهي تتعلق بالكثير من الأمور، التي لا يمكن لأي منا استيعابها، إذا تمّ تجاهل هذه الكلمة. وأنها ارتبطت بممارسة الحب مباشرة. فالجنس هو (الضرب من الشيء، وهو أعم من النوع، ونقول: (تجانس، أو متجانس، وهو: متفق في الأصل أو الشكل أو النوع – والتجانسية هي دالة جبرية صحيحة متجانسة لمتغيرين أو أكثر. وكلمة "جنس" مُجمع عليها في التصنيف: جماعة أنواع نباتية أو حيوانية لها صفات مشتركة. وجنسية: صفة حاصلة لأعضاء أمة ما – ومتجانس أيضاً: ليس ينقسم إلى أجزاء محدودة العدد بالطبع ومتجانسات الأجنحة: رتيبة من الحشرات النصفية الجناح... إلخ[21].

فكيف يمكن التعامل مع هذه المفردة / الكلمة، ولها كل هذا الحضور الإستراتيجي في لغتنا اليومية، وفيما نكتب، وفي المناقشات الخاصة والعامة أحياناً.

حول أصل كلمة الجنس

هناك تفسيرات كثيرة حول كلمة (الجنس)، لا يمكن اعتبارها متناقضة. فالإيتمولوجيا (أصل الكلمات) مجال صعب الخوض فيه وإصدار أحكام قاطعة حاسمة. فاللغات تتداخل فيما بينها، وتهاجر في تهجئتها، حتى داخل الإقليم الواحد وتتم زحزحتها من مكانها، ومعناها كذلك، بحيث تختلف باختلاف الأمكنة. ولا يمكن الجزم، بأن لغة هي نقية، لم تمتزج بلغات أخرى. وثمة كلمات عديدة أصبحت ذات حضور عالمي، بسب كثرة استعمالها، ودلالتها على معنى، متفّق عليه، على أكثر من صعيد، موغلة في القدم. ومن هذه الكلمات، كلمة (الجنس)، فهناك من يعتبرها لاتينية[22]. فهي بالأصل (Genius)، ومنها اشتقت الجن والجنون وغيرهما، من الكلمات التي تدخل في إطار الإشتقاقات. ويرى (علي الشوك) أن الجنس يدعى باللاتينية Genius، وتعني

21 – أنظر كلمة (جنس) في: الصحاح في اللغة والعلوم، تقديم العلامة الشيخ عبد الله العلايلي، إعداد وتصنيف نديم مرعشلي وأسامة مرعشلي (بيروت: دار الحضارة العربية، 1974)، المجلد الأول، ص 213 – 214.

22 – بندلي صليبا الجوزي، دراسات في اللغة والتاريخ الإقتصادي والإجتماعي عند العرب، جمع وتقديم جلال السيد وناجي علوش (بيروت: دار الطليعة، 1977)، ص 314.

الكلمة (عبقري) أيضاً، والجينوس هو إله ذو هوية مجهولة في الغالب، يجير أو يحمي الناس وأماكن سكنهم وعملهم. ويذكر قولاً للمستشرق الإلماني (نولد كه)، يعتبر كلمة (الجن) العربية مستعارة – وجاء في الموسوعة الإسلامية (النسخة الإنكليزية): "يشتق اللغويون العرب كلمة (جن) من (اجتنان) بمعنى (يختفي) وهو اشتقاق غير مقنع. أما احتمال الإستعارة من Genius الاتينية، فلا يمكن استبعاده بصورة قاطعة.[23]

لكن الدكتور (أغناطيوس الصيصي) يُعتبر أكثر من حاول تناول أصل هذه الكلمة، وشرحها (في حدود علمنا)، من جوانب مختلفة، في دراسة له ممتعة، تحمل عنوان (جذر "جن"): دراسة معجمية.

كيف ينظر الدكتور الصيصي الى حقيقة كلمة (جن)؟

يشير في البداية الى نقطة مهمة (من وجهة نظرنا) تخص البحث اللغوي، حيث يثير ملاحظتين، يراهما ضروريتين:

الأولى: تتعلق بأهمية الحروف الصوامت، وهي بمثابة (عمود فقري) للكلام، في أكثر لغات العالم، وهي وحدها التي تذكر في كتابه اللغات السامية أصولاً مع إهمال الحركات. بينما الحروف الصوائت هي أضعف من الصوامت. ويمكن إسقاطها أو تبديلها بسهولة أكبر، مثلاً ألفاظ (Gen) و(Con)و(Gyn) ما هي إلاّ أشكال مختلفة لجذر واحد في المعنى، رغم تباينها الإملائي .

الثانية ترتبط بتبديل الصوامت ذات المخرج الواحد. من فم الإنسان، بين بعضها بعضاً، عند انتقال هذه الصوامت من لغة الى أخرى، أو حتى في إطار اللغة نفسها. مثلاً في ما يخص بحثنا هذا، إن حروف-k-Z-G-j-c-e ، ولفظة (ذ) في اللغات الهندوأوروبية، وحروف ج-ذ-ز-ظ-ل- في العربية بين بعضها، ولكن المفردات التي تنجم عن تبديل هذه الحروف تحفظ معناها الأساسي في إطار لغوي طبيعي ومنطقي[24].

ويرى بعد ذلك جذر "جن" (Gen أو Gne في السنسكريتية، وZahn في

23 – علي الشوك (1987): اهتمامات ميثولوجية، واستطرادات لغوية، مجلة الكرمل، العدد 26 ، ص 31-30.

24 – مؤلف كتاب: الجنس في العالم القديم، بول فريشاور، هو نفسه يشير الى هذه الناحية، وبشكل أوضح، فيقول في ص 28: "نقرأ في العهد القديم أن آدم قد "عرف" امرأته. هذا التعبير لا يحل غالباً محل الكلمات المستعملة عادة والمألوفة أكثر منها مثل: "نام مع" أو "سكن مع". فليست هذه الكلمة كناية للتعبير عن الإتحاد الجسدي السابق لحمل حواء ولإنجابها. إن كلمة "عرف" ليست رمزاً؟ فهي تعني حقاً ما ترغب في قوله وتدل على انعطاف حاسم في تطور أخلاق الإنسانية، إن "معرفة" المرأة التي اقترن بها الرجل جنسياً تدل على الإعتراف للأم بالطفل الذي حملت به من جراء هذا الإقتران، فإن لم يكن آدم الأب "البيولوجي" الحق لجميع البشر فإنه، على الأقل، أو من "عرف امرأته حواء". وعليه فإنه إذن أو رجل في التاريخ الديني يستحق الإعتراف به أباً".

الأفستائية وDAN (تلفظ مثل "ذن" العربية أو Than) في المسمارية الفارسية.

يرى أن هناك معنيين، يتصلان معاً، عبر هذا الجذر المشترك 1– الولادة ومرادفاتها، 2 – المعرفة ومرادفاتها – فالولادة هي نتيجة ذلك. وفي المعرفة كذلك، يحدث الشيء نفسه. فالمعرفة نتيجة (تزاوج) بين الموجودات عن طريق الحواس، ودماغ الإنسان، فتتولد فكرة معينة. كما في عبارة (مريم) للملاك، عندما بشرها بأنها ستحمل وتلد المسيح "أنّى يكون هذا وأنا لا أعرف رجلاً؟" فهي تعني: عدم الإتصال الجنسي.

ثم يرى أن كلمة (jen) الكردية تعني المرأة، وفي الفارسية الحديثة (رَنْ) المرأة (أي المولّدة).

وفي اليونانية Genosعِرق، Genesis خلق، Gonos توليد، Gune امرأة.

وفي الفرنسية التي اعتمدت على اليونانية Genes تكوين، Geneglogie سلسلة نسب، Gene عنصر الوراثة، وفي اللاتينية Genes عِرق، Generalius المتعلق بعرق، عام، Gens أمة، نسل، وفي الأرمنية تسمى المرأة (جن) بلفظ الجيم المصرية، Guin – وفي الكردية "ذانم" تعني "أعلم"، وفي الفارسية الحديثة Danech "دانش" علم. وجان تعني الروح...

أما في العربية فكلمة "جنّ" أصلها الثنائي "جن". وتعني (جنن): جنّة الليل أي ستره. وبه سمي "الجن" لاستتارهم عن الأبصار. ومنه سمي الجنين لاستتاره في بطن أمه. والجن بعكس الإنس، هي أرواح، والجنان هو القلب، والجنة هي البستان، والجن هي الروح العبقرية، والمجنون هو الذي يولّد من فكره أشياء غير منطقية، والنحلة المجنونة هي المفرطة الطول، وجنى: بمعنى قطف، وهي مما أنتجته الشجرة، وجنى جناية: ارتكب أمراً غير مشروع وكلمة (الجفن) هي غطاء العين؛ أو غمد السيف، وتقابل vagina اللاتينية التي تعني المهبل أو غلاف السيف وغيره، والمعنى نفسه موجود في لفظ vagin الفرنسي.

و(مجن) من (جن) مع إضافة حرف الميم بطريقة التتويج، والماجن هو مرتكب القبائح المردية والفضائح المخزية. وهناك (هجن) وهي مثل (مجن)، و(هجن الكلام) دخل فيه عيب.. وجنس، حيث يوجد فيه جذر (جن) يشير الى عضو التناسل (Sex) أو الى المولد من الأشياء. و(زنى)، تم في تبديل (الجيم) ب(الزاي)، ومن جذر (جن) عندنا في العربية (زنى) أي أتى المرأة من غير عقد شرعي، وهذا يذكرنا ب (زَنْ) وهي المرأة في الفارسية الحديثة، وهناك (نكح) "نكى – نهل" وفي اللغة هناك ظاهرة تحدث غالباً وهي القلب المكاني لحروف الكلمات، أي تبديل مكانها بين بعضها بعضاً دون تغيير في

المعنى. والسبب الأساسي لهذا (القلب) هو التلفظ الخاطىء بوساطة عامة الناس لمفردة تكتسب رواجاً مع مرور الأيام (مثل مرسح ومسرح). وفي لفظة "نكح" حدث قلب مكاني بين الكاف والنون وأضيف الحاء للتوازن الثلاثي، والمعنى يعود إلى "جن"، ولفظة "نكى" مشتقة من الجذر نفسه، كما يقال "نكح" المطر الأرض، إذا اعتمد عليها - وامرأة النكح: ذات زوج، "نكى" العدو: هزمه، و"نهك" الأمر فلاناً أجهده وغلبه[25]... الخ

ترى ماذا تستفيد مما تقدمنا به؟

من الممكن تصور علاقة قوية بين طائفة من الكلمات، تتحرك ضمن إطار كلمة (الجنس) عربياً - فالجنس هو أصل الشيء والأصل يحمل أنواعاً، قد تصل الى حد التناقض فيما بينها، أو يصعب إيجاد صلة بين نوع وآخر، إذا دقّق فيها ظاهرياً، غير أن متابعة أصل الكلمات (الإيتمولوجيا) والبحث الإجتماعي لها (اللوكسيولوجيا)، يسهّلان أمامنا هذه المهمة. فما يبدو ظاهرياً تناقضاً أو تضاداً، يكون أو قد يكون تآلفاً وتناغماً في العمق، وما يبدو مستهجناً ظاهرياً، قد يكون مستحسناً في العمق... فالجنس في أصله هو أعمق مما يوحي به. ومن هنا تنوع معانيه، وتشتت هذه المعاني كذلك.

وما يخيفه الجنس هو أكثر بكثير مما يظهره. فالمجنون لا يُعرف في ما سيعلنه لنا من أفكار، إنه يقول ما هو غير متوقع، وغير منطقي. والجَنان: تشير الى القلب، والقلب خفي، لا يتحكم به، والجن غير مرئية، والجان: مخلوق روحاني - والجني يخص إنتاج الشجرة. والجنين غير مرئي. والجنة مكان توليد الأشجار. والجناية من (جنى) أذنب، تكون من توليد الشرّ والفساد، كما رأينا سابقاً... إلخ.

فالخفاء، أو اللامرئي، واللامتوقع الذي يتداخل مع الخفاء واللامرئي، صفات مشتركة لما ذكرناه سابقاً.

وماذا عن (زنى - نكح - هجن - جفن... الخ)؟

لعل ما يمكننا قوله هنا، بخصوص هذه النقطة، هو إن القلب، أو تبديل مواقع الحروف، قد ينطلق مما يمكن تسميته بـ (أخلاقية اللغة) أو السلوك الإجتماعي للغة، والمسرح النفسي لها هنا وهناك. ومن جهة ثانية، فإن تبديل مواقع الحروف، وتغيير حرف ما، أو حذفه، مع الإحتفاظ بالمعنى الأصلي للكلمة الأولى، قد ينطلق من تصورات، مقرها الذاكرة الجماعية، أو اللاوعي

25 - انظر على سبيل المثال: الجوزي، دراسات في اللغة والتاريخ الإقتصادي والإجتماعي عند العرب، ص 314-300

الجماعي، الذي يؤثر في طريقة التعامل مع مفردة ما، والذي يخدم وظيفة إجتماعية، لها رأسمالها الرمزي، أي لها سلطتها الإجتماعية، وخاصة في ارتباطها بالرجل والمرأة، وعلاقتهما مع بعضهما بعضاً..

ووفقاً لما تقدم، تبرز لنا الكلمات المذكورة، أي (زنى – نكح – هجن – جفن... إلخ) غير بعيدة في علاقتها القرابية أو النسبية بالكلمة الأساسية. أي كلمة (الجنس). فكلمة (زنى) تشير الى علاقة جنسية غير مشروعة اجتماعياً، وغير مقبولة أخلاقياً، وهي في أساسها تعبر عما هو مستور، حيث يكشف عنه، ويُفاجأ الآخرون، ولا يقبلونه، وكلمة (نكح) تكشف عن علاقة بين رجل وامرأة، ينتج عن فعلهما أثر ما كولادة طفل، وكلمة (هجن) لها أثرها، وكذلك فإن كلمة (جفن) تخفي شيئاً في داخلها، أو في أسفلها... والسؤال الذي يطرح هنا، هو: لماذا تبدو كلمة (النكاح) وهي من فعل (نكح) مقابل كلمة (الجنس)؟ ربما لأن كلمة (الجنس) هي كلمة عامة، وتحمل مدلولات كثيرة شتى. ولأن هذه الكلمات، لها معانيها مختلفة، كل معنى له وقعه النفسي الخاص، وكيانه اللغوي المغاير!

ولعلّ الحديث عن ثغرات كارثية في اللغة، معبّر تماماً. فكم من كلمة لها أصالتها، وحضورها الكبير فينا: رجالاً ونساء. ولكن الخيال الإجتماعي، والذاكرة الجماعية التي تؤثر في حركية هذا الخيال، ومسرح العلاقات الإجتماعية، له دور كبير في زحزحة الكثير من المفاهيم، أو اختزالها، أو تقليص حدودها، واللغة حساسة في هذا الإطار. فلها سلطتها، وهي تمارس مثل هذا الإقصاء والحجب لمفاهيم معينة، أو كلمات معينة، أو تشكيل تصورات معينة، انطلاقاً من حركة العلاقات المذكورة، لتغدو لاحقاً حقيقة معاشة.

ولعل ما يجمع بين الجنس والنكاح والفرج والعورة وكلمة (Sexe) هو الذي يؤكد لنا ذلك! فإذا كان الجنس هنا، يشمل الجنسين (الرجل والمرأة)، والوظيفة البيولوجية التي تؤدي عن طريقهما معاً. لأنه تجسيد لسلطة الرجل في العموم. فالرجل هنا لا ينكح المرأة فقط، أي لا يعتليها متمتعاً بجسدها، بل (ينكح) حضورها، ويكون حضوره كلياً. إنه كلي الحضور، الحضور الفاعل، خلاف المرأة التي تحضر جسداً وتغيب كياناً إنسانياً. "إن جاز التعبير" فوطء الجسد، هو من أجل امتلاكه، وامتلاكه يكون من خلال الجماع. هو إثبات للحضور (الرجل) مقابل الغياب (المرأة) أو الإمتلاء الرجولي، للفراغ الأنوثي.

أما الذي يميّز بين (حواء) و(مريم)، بين (sexe) و(chaste)، فهو ذلك التفريق بين مفهومين تاريخيين وإنتروبولوجيين. حيث كلّ شعب، يتعامل مع الكلمات والصور بطريقة مختلفة، تعبر عن توجهه في الحياة، انطلاقاً من مسرحه

الثقافي في الحياة. فالتأكيد على (chaste) التي تدل العفة، والطهارة، تعبير عن اللانكاحية (إن جاز التعبير)، في العرف المسيحي. ف(مريم) لم تتزوج، مثلما نقرأ عن آدم أنه ضاجع (حواء). ومفهوم العفة في سياقه (ال: مريمي) تحول الى تصور ثقافي، وتجذر في الذاكرة الجماعية المسيحية. ومفهوم العفة كذلك يرتبط بغياب الشهوة، أو تغييبها (عدم معرفتها)، من قبل (مريم) وحتى من قبل (المسيح). فكان عدم الممارسة الجنسية يعادل هنا تجاهل الحياة الدنيا، أو نسيانها، والتركيز على الآخرة. وهذا هو سرّ تقديم المسيح جسده ودمه للآخرين، فهذان ماديان، ليحتفظ بروحه، في طهارتها، من اجل الحياة الأخرى... وكان الذي لا يمارس الجنس، يقطع علاقته بالحياة في ماديتها... العفة هنا تعادل الحياة الأولى في براءتها وألوهيتها. أما الجنس فحياتي. والعفة (chaste)تعني ترك الشيء، وإبقاءه مغطى وتجاهله ونسيانه. وهي أيضاً تقابل العذرية الدائمة، واللاشهوية، واللانجسية. حيث الجنس يرتبط بالنجس، بالتغير والتبدل والتحول في الشيء – كما يبدو – ولهذا كانت مريم (شاستية)، اما في التصور الإسلامي، فهناك (الفرج)، حيث نسي (سلامة) هذه العلاقة والفارق، الفرج يترادف مع المفتوح، مع الذي يسمح بدخول المؤثر، والتعرض للتحول لاحقاً!

وهو يقابل الإنجاب، الإنجاب الذي يقوم على الجماع، ويرتبط بالشهوة، باللاعفة لاحقاً! العفة المسيحية تستبعد حضور الجنس خلافا للدين الإسلامي الذي يؤكد حضوره... ولعل كل تصور ينطلق من وضعية ميثولوجية وحضارية ولاهوتية كونية معينة..

3- ثنائية الجنس والعلاقات القائمة بينهما

أ- الجنس في حضوره الأسطوري والديني

الجنس في حضوره الأسطوري والديني أدرك الإنسان القديم، قبل مجيء الديانات السماوية، الأهمية الكبرى للجنس. فالجنس لم يكن وظيفة بيولوجية، ولا طقساً احتفالياً، إنما كان مسرح الحياة. فيه ومن خلاله وعبره، اكتشف الإنسان نفسه، وتواصل مع خالقه، وخاصة عندما ربط بين الوظيفة الحيوية للجنس باعتبارها ممارسة كينونية، وفعلاً مقدساً، فيه يتجسد الحضور الإلهي، وعنفوان الحياة.

وممارسة الجنس تجل من تجليات الخلق، ونظام احتفالي، تتأصل فيها علاقة الحضور بالغياب، الميتافيزيقا بالفيزيقا. أي علاقة الإنسان المادية المحدودة والنسبية، بالوجود الألوهي اللامرئي، والكينونة الألوهية الشفافة بالكينونة البشرية الملموسة والمحسوسة والمعيوشة.

وبهذا المعنى لا يعود الجنس مفردة، تأخذ قيمتها في الجملة التي تتضمنها، بل هي لغة قائمة بذاتها، كينونة طافحة بالمعاني. أو كيان مسكون بالتفجر الإبداعي. إنه (أي الجنس) تاريخ مرئي تماماً.

ولكن هذا التاريخ المرئي لا يسير على وتيرة، وليس أحادي البعد، إنه متعدد الطبقات. غير أن الأرضية التي يقوم عليها، هي أرضية احتفالية، طقسية، يمتزج فيها الألوهي بالإنساني، اللاهوتي بالناسوتي، فالإنسان وجد نفسه في مواجهة المطلق، وفي المطلق، ومع المطلق، ولهذا ابتدع أساليب وطرائق، للتفاعل مع مجسد هذا المطلق، ولتحقيق المعادلة التي يشعر فيها بحضوره، ليؤكد وجوده عبره وقد كان الجسد حامل هذا التاريخ، وخاصة في الجنس...

ولعل محاولة القيام بممارسات جنسية، وخاصة في طقوس جماعية، وفي الطبيعة، كانت تشكل وقتذاك – كما يبدو – التجلي الأعظم للسر الألوهي، والإعتراف الأكبر بحضوره المطلق، وسواء اعترف به، أو لم يُعترف به، فإن الإحتفالية الجنسية، كانت تعبيراً عن القدسي المجسّد في الإنسان... وفي ترنيمة سومرية غنائية نتلمس مثل هذا الحضور اللاهوتي في الناسوتي.[26]

ولعل ارتباط وربط الجنس بالخصوبة احتفالياً، هو لتأكيد الحدث، وتدوينه في الذاكرة الجماعية! والطبيعة ذاتها كانت تشكل بؤرة الجنس، أو الممارسة الجنسية. وهي بدت للإنسان الحقيقة المعاشرة بحواسه الخمس ووعيه، والمدرسة المفتوحة التي تعلمه. فالسماء كانت تعتبر الأب / الذكر، والأرض كانت تعتبر الأم / الأنثى، ومطر السماء كان يشكل المني الذي يخصب الطبيعة / الأرض: الأم..

وهي "لا يمكن أن تكون سوى أثر لزواج مقدس بين السماء الأب والأرض الأم: مطر السماء، زوج ينزل كقبلة على الأرض، وها هي الأرض تلد القمح للغانين وللقطعان التي سترعاه".[27]

وقد كانت (المشاركة الجنسية هي مشاركة في الخصوبة الكونية. إنها خصوبة إلهية، الجنس سرّ، خبز وخمر المؤمنين بالحب. وفي اليونان، كانت تطلق كلمة قديسات، على البغايا المقدسات، والعذارى المقدسات، وفي بابل، طاهرات وإلهيات: فكان يُعتقد أنهن يجسدن الربة. وظيفتهن كانت مشابهة "لوظيفة المشاركة القربانية" حيث كانت تسمح للرجل بالحصول على "التماس

26 – نقلاً عن صموئيل كريم، ايننا ودوموزي: طقوس الجنس المقدس عند السومريين، ترجمة نهاد خياطة، ط 1 (قبرص: سومر للدراسات والنشر والتوزيع، 1986)، ص 84

27 – فيليب كامبي(1992): العشق الجنسي المقدس، ترجمة عبد الهادي عباس، ط 1 (دمشق: دار الحصاد)، ص 58

الإختياري مع الألوهة").[28]

هذا الجنس بمفهومه الأسطوري، يستمر لاحقاً، ليكتسب صفات جديدة، بارتقاء وعي الإنسان، ويتعرض لتعديلات مختلفة، تتناسب ومفهوم الإنسان العقلي لما حوله، تنتظم قوانين، وتصاغ شرائع، وتعطي أهمية كبرى للجنس، لأنه محور العلاقات الإجتماعية، الجنس كامن في كل فعل يقام، في اللاوعي، وفي اللغة، في حالة الصمت، أو الكلام...

في نشيد الإنشاد، تظهر احتفالية الجنس مرافقة لإحتفالية الطبيعة.

في المسيحية، لم يحتفظ الجنس بعلامة فارقة واحدة، لأنّ طبيعة المسيحية تختلف. المسيح لم يتزوج. الجنس هنا يصبح كامناً لقوة في الجسد، ليصبح قوة تصعيدية في الجسد وللجسد، ترتقي بروحيته الى أقصى مدى... وكما ان المسيح لم يتزوج. وبقي الجنس سرّ قوته، وعلامة استمراره عفيفاً، وابناً للعفة، كما تقول الأدبيات المسيحية، كذلك (مريم العذراء) فالعفة كانت علامتها الفارقة الكبرى. بقيت بكراً – البكورة هنا ترادف القوة المحصنة، السر المنيع على الإكتشاف، والألوهية المؤنسنة، والتناسل خارج مفهوم (الوطء)... ولهذا يقول أحد الآباء: "من المستحيل الاستسلام في آن واحد للمتع الجسدية وأعراس الروح"، فيجيب التنازل عن اللذة للتوافق مع الإله، من أجل الدخول في الاتحاد الإلهي، كل ما يعيش في الروح يجب أن يموت.."[29]

لكن هل استطاعت هذه الإبروسية المعكوسة والموجّهة نحو الداخل، أو الأنثى "ضد" الإبروسية، حصانة وتحصين الجسد من لعبة الجنس الألوهية؟ هل بقي الجنس حاملاً العفة؟ وهل كانت البكورة، بكورة، غير مقاربة لدالة الذكورة، غير ملامسة لفاعل الشهوة الذكوري، ومنغلقة على (نفسها)؟

في السلوك الترهبي (من الترهب، سواء كان راهباً أم راهبة)، كان هناك تصعيد للفعل الجنسي، محاولة مستمرة لإبقائه حاملاً صفات العفة والطهارة chaste ولكن مضمون السلوك، كان يفضحه..

كان الجنس حاضراً كتصور، كقوة متخيّلة، كشهوة مرغوبة على صعيد الخيال، لكنه كان غائباً كممارسة.

إن إيراد هذا المقطع لإحدى المتصوفات المسيحيات، الذي يتضمن صورة

28 – المصدر نفسه، ص 120.

29 – نقلاً عن: كامبي، العشق الجنسي والمقدس، ص 161، ومن هنا ولهذا أيضاً، كانت كلمة (chaste) التي تعني (العفة) والمذكورة سابقاً، معتمدة في التصور المسيحي: إنها نشدان للألوهي، وهجران للأوطي. "معرفة مضادة للناسوتي".

عن سلوكها اليومي، يوضح لنا ذلك: "قلبي وشراييني وكل أعضائي انتفضت واضطرمت شهوة و – كما حصل غالباً – شعرت بعنف وخوف متحققين إذ بدا لي أنني لم أقدّم إشباعاً لحبيبي وإن هو بذاته لم يستجب لرغبتي، سوف أموت من الحب الجنوني وأنتهي ساخطة".

هذا الوصف / التصوير، يعبر عن جنس ممارس في العمق، ولكنها ممارسة على صعيد الرؤيا والتخيل، فالحب المسيحي كان محاطاً بتابع بارز. كان مرتبطاً بالإثم، بالخطيئة الأصلية. ولهذا كان يشتعل في الداخل، كي لا يفتضح أمره.. وكان الحبّ الصوفي هو محاولة لاستعادة التوازن، للمحافظة على توازن الذات..

ولكن هذا الحبّ لم يبق كما هو، الإبروسية برزت في أكثر مشاهدها افتضاحاً ووضوحاً. ظهر هناك ما يمكن تسميته بالجنس المقدس، كما كان قديماً. ولكنه جنس غالباً ما يتم من داخل الجسد، وبعيداً عن الإله.. فالبغاء المقدس قديماً كان محاولة لتقليد الفعل الألوهي في الطبيعة. أما الآن، فهناك إقصاء له.. يقول (فيليب كامبي) بلغة لا تخلو من ألم وسخط واحتجاج (في كل مكان نفشي اغراءنا وقلقنا، فعبادة الإعلانات على كل جدراننا تبرز أثداء الفتيات. بيد أنه لا يزال هناك بطانات للروح. ان المجتمع الإستهلاكي هو مجتمع إثارة – لكننا الزانية الكبرى، التي أشارت اليها الرؤيا الرسولية. نحن أبناء فيكتوريا، وسوف نود البقاء أبكاراً في الفجور).[30]

كيف نُظر الى الجنس في الإسلام؟

والقرآن نفسه في مختلف نصوصه، يعلن عن بشريته، عن أنه جاء هدى للناس، وأنه في مختلف سوره وآياته يتضمن رؤى ومشاهد إنسانية، يبرز فيها الإنسان مسكوناً بحقيقة صراعية تتضمن الخير والشر، في حركة مستمرة، إن إخراج الإسلام (توليفه) بهذه الطريقة، يبقيه حتى فوق مستوى التصوير الطبيعي، عصياً على الفهم والتفاعل معه، واستيعابه إنسانياً، عندما نجد أن سبقه تاريخياً، إما سلبي كلياً، أو لا يستحق النظر فيه، أو يكاد يكون عدماً. إن الإنسان يفهم دينه، عندما ينفتح عليه.. ولعل فهم الجنس في سياقه التاريخي، وكيف تفاعل معه النص القرآني وجسّده، يحيرنا على أكثر من صعيد: من جهة تقاطعه دلالياً مع المرحلة السابقة عليه، من جهة التعتيم على هذه المرحلة، خاصة لمن يحاول الربط بين تلك المرحلة وما جاء في القرآن، ومن جهة الحدث الجنسي في القرآني، الذي يجسد مشهد (آدم وحواء)، وكيفية تجليهما تاريخياً.

30 – المصدر نفسه، ص 12.

إن الرجوع إلى التاريخ بوسعه إيصال ما هو مقطوع ومغيّب، بما هو مذكور في القرآن، والمتعلق تحديداً بـ (آدم وحواء) في حضورهما الجنسي، ودلالاتهما الإجتماعية والتاريخية، ومن وجهة نظرنا يبدو هذا الإجراء مساعداً لنا أكثر على استيعاب النص القرآني، والتجاوب إنسانياً معه. ولعل الذي يؤكد ما نذهب إليه، على أكثر من صعيد، هو أن الكثير من التصورات القرآنية المتعلقة بـ (أساطير الأولين)، وتصوّر العالم الآخر، وصفيّ الإله... الخ)، يمكن العثور عليها في الكثير من أساطير المنطقة الرافدينية والمصرية31. والتصور القرآني لأساطير الأولين، وحكايا الأولين ينسجم مع مستجداته، أو تاريخيته تماماً... لكن يبقى البحث عن حقيقة (آدم وحواء) في سياقها الجنسي معتّماً عليه. ولعل هذا التعتيم يتعلق بالموقف من الجنس ذاته، الجنس الذي شرعنت له (عقلية) القرآن في حدودها التاريخية..

البغاء المقدس الذي كان السمة الفارقة في عموم المنطقة تقريباً، يوضح لنا كيف تطور مفهوم الجنس ذاته. وبداية تكوين العلاقة بين (آدم وحواء) لا تتحدد، ولكن أماكنهما تشهد على ذلك. وهذا يعني أنه من الصعب معرفة شيء عن ماضي الإثنين في حضورهما الجنسي، من خلال منعطف القرآن، باعتباره منطقاً ينطلق مما يجب أن يكون، ويتكتم على الماضي لدواعي أخلاقية كونية.. والتمعن في الأرضية التي يتحركان عليها، يكشف عن رابطة قوية (جنسية) محوّرة بينهما وبين الماضي. ففي ثنائية (آدم وحواء) بوسعنا ان نتلمس آثار (عناة وبعل، وأدونيس وعشتاروت، وإيسيز وأوزوريس.. إلخ)[32]، هذه الثنائيات الزوجية المرتبطة بعملية الخصب في الطبيعة.

ولكن الصياغة النصية القرآنية لا تزال تساهم في تشكيل الحقيقة النفسية لدى المؤمنين والدفع بهم الى تقبل هذا الثنائي كحقيقة عقلية وتاريخية مقدسة، وفوق كل نقد!

وعندما نمارس كتابة من هذا النوع، فليس هدفنا هو التشكيك بهذه الحكاية، إنما البحث عن أرضيتها التاريخية، وذلك من خلال ربطها بجذورها البيئية والإجتماعية والثقافية...

عندما نعرف ان الجنس ليس مجرد علاقة بين زوجين أو مجرد اتصال جنسي، إنما هو علاقة مع الذات، ومع الآخرين، ومع الوجود المادي واللامعنوي. فالجنس الذي يدخل ضمن إطار الطقس المقدس، يُقرأ كدلالة، في تمازجه

31 – انظر حول ذلك مثلاً، ما جاء في: هـ. فرانكفورت وآخرين، ما قبل الفلسفة، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا، ط 2 (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1980)، وفراس سواح، مغامرة العقل الأولى، ط 1 (دمشق، 1976).

32 – انظر حول ذلك: فراس سواح: لغز عشتار، ص 310 وما بعد.

مع الطبيعة، في وحدة الوجود، حيث كان الإنسان يجد معناه، ويعيشه من خلال ممارسة الجنس جماعياً، وفي الطبيعة، وذلك في طقوس ومناسبات مختلفة، حيث يتم تقليد الطبيعة في إخصابها من الداخل!

وكأن هؤلاء يؤكدون ما ينفونه، ويحجبون ما لا يمكن تغطيته تاريخياً وثقافياً!

وبالوسع القول إن الطواف حول الحج قديماً، قبل الإسلام، كان يتضمن معنى دينياً جنسياً. فقد كان هناك صنم (أساف) الذي كان معبوداً ذكراً على جبل (الصفا)، وصنم (نائلة) الذي كان معبوداً أنثى على جبل (المروة). والعرب كانوا يطوفون بالبيت الحرام (وكانت سُنّة الطواف أن يبدأ الج بأساف، ثم يستلم الركن الأسود، ثم يطوف عن يمين الكعبة سبعاً، ثم يستلم الركن، ثم نائلة، فيختتم بها طوافه...إلخ)[33]، ثم نقرأ في القرآن بعد ذلك: (إن الصفا والمروة من شعائر الله)[34].

ويذكر أحد الكتّاب المعاصرين، في مؤلف حديث له، مفيد كمصدر يتعلق بـ (الوثنية في الأدب الجاهلي)، وهو الدكتور (عبد الغني الزيتوني)، يذكر تفسيراً هو في جوهره، يتحرك داخل إطار ما هو سائد، عندما يقول "ولا يوجد تفسير معقول يبيّن سبب عبادتهما، بعد تلك الفعلة الشنيعة التي ارتكباها. وأغلب الظن أن تلك الخرافة أشاعتها قريش بين العرب إرهاباً وتخويفاً للحجاج، ليعظموا الكعبة، ويتهيبوا أن يأتوا في الحرم أفعالاً شائنة، وخاصة أن بعض العرب، نساء ورجالاً كانوا يطوفون بالبيت عراة أو شبه عراة"[35].

لعلّ خروجهم بهذا الشكل، هو محاولة منهم للتحضير لممارسة الجنس جماعياً في الطبيعة، في موسم الخصب أو الإخصاب للطبيعة. ثم ما لبثت العلاقة أن تطورت، من إطار الممارسة العملية إلى إطار الحفاظ عليها، ولكن في سلوك طقسي حركي. كما في حال الختان الذي هو في جوهره الأسلوب الأكثر اختصاراً عن مفهوم القربان والتضحية لشخص معين، أو جماعة معينة، فبدلاً من التضحية الكاملة، يتم التخلي عن جزء من أهم منطقة في الجسم، المنطقة التي تساعد على الإنجاب في الحياة، لصالح القوة الخارقة: المعبودة.

ولعل الخوف من حساسية الموضوع، هو الذي يشكل الحائل الأكبر أمام عدم معرفة حقيقة الثنائي المذكورة، ويبدو ان (سيد محمود القمني)، كان أكثر

33 – انظر: الأب جرجس داود دواد، أديان العرب قبل الإسلام ووجهها الحضاري والإجتماعي (بيروت، المؤسسة الجامعية، 1981)، ص 212.

34 – القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية 158.

35 – عبد الغني زيتوني، الوثنية في الأدب الجاهلي (دمشق: منشورات وزارة الثقافة السورية، 1987)؛ ص 33.

إدراكاً لحقيقة هذا الموضوع، من سواه[36]. فيرى أن (آدم وحواء – عندما – هبطا من الجنة نزلا مفترقين، وظلا هائمين حتى التقيا، وعرف (آدم) (حواء) (أي جامعها)، والتوراة بشكل خاص تصر على استخدام لفظ عرف بمعنى (جامع) على جبل (عرفه)، لذلك عرف الجبل باسم عرفه لأن (آدم) عرف أو جامع (حواء) عليه؟ ومن هنا تقدس الوقوف بعرفة، وكان الوقوف بعرفة من اهم مناسك الحج الجاهلي، فكانوا يتجهون الى هناك ذرافات ذكوراً وإناثاً يبيتون ليلتهم حتى يطلع عليهم النهار، وإن العقل ليتساءل أمام مشهد ألوف الرجال والنساء يتجهون الى الجبل ليبيتوا جميعاً حتى الصباح: ما وجه القدسية في هذا الطقس؟ ان لم يكن من قبل ذلك تجمعاً لممارسة طقس الجنس الجماعي طلباً للغيث والخصب، مع ملاحظة ان عرفة يطلق عليه الجمع (عرفات)، لا نعرف جبلاً يجمع اسمه الا (عرفات)؟ فهل الجمع هنا للجبل أم للمجتمعين على الجبل في حالة جماع او عرفات، يماثلون به الفعل الأول الذي قام به (أساف) عندما عرف (نائلة) أو (آدم) عندما ضاجع (حواء)، أو إله القمر (إل) عندما جامع الشمس (إلات)؟... الخ[37].

تعلمنا الأدبيات الأسطورية قديماً، أن الكائن الإنساني استُقبل في الذهن البشري باعتباره كائناً مزدوجا (أي ذكراً وأنثى معاً) وقد (تبيّن من خلال التنقيبات الأثرية أن فكرة الكائن الإنساني الثنائي الجنس كانت معروفة عند السومريين)، ثم ظهرت صورة الكائن الإنساني الواحد في التوراة لاحقاً – وهذه الصورة ظهرت في أذهان اليونان، كما تحدث عنها (أفلاطون)، وقد ذكرناها سابقاً.

ويمكن العثور عليها، في أكثر من مكان، مما يؤكد عالمية الفكرة، فالإنسان هو واحد، ولكن كيفية خلقه، وتطويره، تشكل السؤال الذي شغل بني البشر جميعاً: الماديين منهم، والمفكرين والأدباء والفنانين... إلخ.

وكمثال على ذلك، نقرأ في كتاب (الكاما – سوترا) الهندي المقدس، والذي يعني (حكم الرغبة)، والذي يرجع الى القرن الثالث للميلاد[38].

ولعل أول ما يذكرنا به هذا المقطع، هو ما يتعلق بمفهوم النفس في القرآن، فقد

36 – أشير هنا، بشكل خاص إلى: فراس سواح، في: لغز عشتار، الذي هو رغم تأكيداته على مفهوم الجنس كممارسة اجتماعية مطقسنة (من الطقس)، والبغاء المقدس، من خلال ربطه وارتباطه بخصوبة الطبيعة، والتفاعل معها، انظر: عشتار البغي المقدسة – ص 177 – وما بعد، يتجنب الحديث عن حقيقة (آدم وحواء) كتجلّ محور من تجليات الجنس المقدس!

37 – سيد محمود القمني، الأسطورة والتراث، ط 2 (القاهرة: سينا للنشر، 1993) ص 126. وللمزيد من المعلومات أنظر: المصدر نفسه، وما يلي الصفحة 126.

38 – بول فريشاور، الجنس في العالم القديم، ترجمة فائق دحدوح، ط 1 (دمشق: دار الكندي، 1988) ص. 25.

جاءت الآية هكذا "هو الذي خلقكم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها"[39].

إذ يبدو انّ النفس في التصور الأسطوري، وفي الخيال الديني، قوة روحانية، وجوهر مفارق لما هو مادي، وهي سابقة على البدن وهذا يعني أنها ذات نسابة إلهية، وخاصة إلهية..

ب- ثنائية الجنس في القرآن

فالثنائيات تشغل الكون، وتخلق معنى. وبها يكون الوجود، والحياة كذلك، وعليها تتأسس العلاقات بين البشر. وهي إذ تختلف في أسمائها، فإنهما تلتقي في هدف واحد يجمع ما بينها. لأن حقيقتها واحدة...

فالكائن الإنساني كان واحداً (لنتذكر هنا ما قال أفلاطون في كتابه المذكور، بخصوص وحدة الإنسان).

والآية التي نصُّها "هو الذي خلقكم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها"40، تذكير بوحدة الإنسان أولاً، وأن تقسيمه هو من أجل تكامله. ولعل التفكير في الأصل الواحد، هو الذي يسهل حل الكثير من المشكلات، ويهذب العلاقات، ويزرع المودة في قلوب الناس، وفيما بينهم، ولا يدع لأحد فرصة للتفاخر بنسبه، ما دام (الكل) من نفس واحدة (ألم يكن آدم من نفس واحدة – أو النفس الواحدة هي آدم؟). ومفهوم الزوج، ليس مرادفاً للإثنين. فالإثنان يوحيان بالإنفصال بين شيئين، وجسمين، أما الزوج فيشير مباشرة الى التكامل بين اثنين، من مصلحتهما أن يتكاملا، ولأن كلاً منهما ينشد الآخر. وهناك الكثير من الآيات القرآنية تشير الى التكامل، على أساس هذا المفهوم:

"وإذا النفوس زوّجت"[41]، أي جمع كل شكل الى نظيره. "أمسك عليك زوجك واتق الله"[42].

فالفرد الواحد لا يصنع شيئاً! والحياة تقوم على التجاذب بين الأفراد في نظام زوجي. حيث يتمتع كل طرف من جهة (الجنس) بخصوصيته، ليستطيع ممارسة تأثيره الفعال في الآخر، ويتفاعل معه، وليؤدي دوره بالتالي على أكمل وجه.

نعم (كل شيء يدور حول ماهية "الزوج". ويشدد "لسان العرب" على أن الثنائية التي ينطوي عليها مفهوم "الزوج" تعيدنا الى مبدأ التساوي بين

39 – القرآن الكريم، سورة الأعراف، الآية 189.

40 – القرآن الكريم، سورة الأعراف، الآية 189.

41 – المصدر نفسه، سورة التكوير، الآية 7.

42 – المصدر نفسه، سورة الأحزاب، الآية 37.

الجنسين والى تعارضهما. فالزوج هو الفرد الذي له قرين. والزوج اثنان وكل اثنان زوج. والزوج خلاف الفرد)[43].

لكن إذا كان كل طرف قد أدرك ذاته وجنسه، من خلال الآخر، وتوصل الى حقيقة الآخر بشكل ما، من خلال التفاعل معه، وخاصة في الممارسة الجنسية، هذه التي اكتسبت أبعاداً ثقافية واجتماعية وتاريخية متنوعة، تطورت، وتعدلت، وتحورت حسب الوضعيات المجتمعية ومتحولاتها، فهل كان التفاعل هذا محققا عملية التوازن؟ أو بشكل واضح: كيف توضعت العلاقات جنسياً بينهما؟

في البداية لا بد من القول إن الزواج احتل مكانة رئيسة في الإسلام. لا لأنّ الإسلام لم يجد سوى في الزواج ما ينشغل به، وبفلسفة، أو ينظّر له. فالزواج ليس علاقة بين ذكر وأنثى، علاقة تقوم من خلال ما اتفق عليه بـ (النكاح)، وإنما لأنه، يستقطب علاقاتٍ أخرى. والقرآن قد حوى آيات كثيرة حول هذه المسألة. ولعل ما تذكره (فاطمة المرنيسي) حول هذه المسألة، يؤكد ما نذهب إليه، وهو أن (السور الأولى هي، فعلا، السور التي تظهر فيها الأحكام الأساسية للإسلام المتعلقة بالزواج والإرث)...[44]

وهناك مجموعة من الآيات، تؤكد أهمية الزواج في الإسلام منها:

"فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة"[45].

– في الآية الأولى: الحض على الزواج ممن كان صالحاً. والعلاقة المميزة في الزواج صلاح الزواج!

– وفي الآية الثانية: تحبيذ الزواج من اكثر من واحدة. وفي حال الخوف من عدم إمكانية تحقيق المساواة بين الزوجة والأخرى، فلا بد من الإكتفاء بواحدة. لتكون العلاقة الزوجية أسلم.

ما الذي يمكننا استخلاصه مما تقدمنا به؟

الزواج هو في جوهره خطاب جنسي.

ولعلّ ما تقدمنا به، يسمح لنا بالقول، إنه بقدر ما دعا القرآن الى التعفف في

---

43 – بو حديبة، "الإسلام والجنس" في مجلة الناقد، ص 60.

44 – فاطمة المرنيسي، الحريم السياسي: النبي والنساء، ترجمة عبد الهادي عباس، ط 1 (دمشق: دار الحصاد، 1990)، ص 44، وهذا القول هو في الأصل لعبد القادر أحمد عطا في مقدمته لكتاب السيوطي، أسرار ترتيب القرآن، ص 5 وما يليها.

45 – المصدر نفسه، سورة النساء، الآية 3.

مسألة التعامل مع المرأة، وضبط العلاقة معها، وتهذيبها في الوقت نفسه، من خلال نكاح شرعي، كان هناك ما يسمح باختراق ما هو منصوص عليه في القرآن، ويدع الرجل مستمتعاً بالمرأة كجسد، وليس ككيان، قائم بذاته. ولهذا نجد أنه (في الخطاب القرآني الكريم تبرز "النساء" بمواصفات جديدة وقديمة معاً)[46].

لكن بما ان الرجل كان مسكوناً بهاجس التمتع بالمرأة كجسد قبل كل شيء، وبما أن القرآن أراد تهذيب علاقته معها.

وليس اختلاف مستويات الفهم لدى الناس، بالنسبة الى النص القرآني، بخصوص موضوع المرأة، هو الذي أدى الى ظلمٍ المرأة، أو تبخيسها حقها هنا وهناك، وإنما وجود آيات مختلفة، يعطي مجالاً للذين في أنفسهم غايات مختلفة "شهوية حصراً" باستغلال ما هو ظاهري في هذه الآيات من ناحية، ولأن هذه الآيات هي نفسها، ظلت ولا تزال مجالاً لاختلاف وجهات النظر، وتعدد التأويلات، بل وصراعها من ناحية أخرى، كانت المرأة فيها، على أكثر من صعيد ضحيتها المباشرة...

يبدو أن صورة المرأة السلبية، بقيت في الذاكرة الجماعية، وفي اللاوعي الجماعي، حتى بعد مجيء الإسلام، لأن ما نص عليه القرآن – كما ذكرنا سابقاً – أعطى المجال الأوسع لتلك الذاكرة المحتفظة بالصورة السلبية تلك، في أن تبقيها هكذا وللاوعي الجماعي ذاك.

الثنائيات الجنسية والعلاقات القائمة بينهما... لقد رأينا كيف أن الثنائيات من خلال التفاعلات الموجودة فيما بينها، هي التي تتمحور حولها وفيها الحياة... وقد شغلت الثنائية الجنسية الذهن البشري منذ وجد، وتداخل الأسطوري مع الديني، ثم أصبح الديني هو الذي يستوعب الأسطوري، ويهذبه، ليتناسب مع نصه...

والتكافؤ بين هوى الجنس كان ولا زال مسألة نسبية. وتقنية الجنس توضعت وفق ما كان يعتبر الأمثل والأكمل اجتماعياً، وظل النظري والعملي يتداخلان ويتصارعان على أكثر من صعيد، وتحول النظري على اكثر من صعيد (نظراً لما كان يتمتع من مرونة، وقدرة على استيعاب المختلفات) ساحة لصراع التفاسير، والتأويلات، وتحول العملي نفسه الى مسرح ملموس، لوضع قواعد اجتماعية وثقافية، يصبح فيه النص محكوماً بسلطته، ويكون النص القرآني تحديداً، باعتباره موضوعنا هنا، في حالة اللاثبات، انطلاقاً من الصيرورة في

46 – خليل أحمد خليل (1985): المرأة العربية وقضايا التغيير: بحث اجتماعي في تاريخ القهر النسائي، ط 3 (بيروت: دار الطليعة)، ص 46.

الواقع المجتمعي.

واللعنة المقترنة بالجنس في مفهومه الذكوري والأنوثي، أصبحت موضوع رهانات اجتماعية بل وسياسية.

المرأة هي جميلة، والجمال الذي تتميّز به المرأة، هو معادل للعنة. وكلمة (جَمَل) تقابل (لجم) والجمال يلجم المرأة جسدياً، على الصعيد الجنسي، ويهبط بها الى مستوى الجسد الرغبي. والرجل يبحث عن المرأة الجميلة. لا ليتمرأى في وجهها الصبوح، أو ليتمعن في آية الخلق فيها، كما يقال، إنما ليتحكم بحركية هذا الجمال، ليضبط إغراءه تماماً. الجمال هنا فتنة. والفتنة إغراء. والإغراء طعم شيطاني. وتشبيه الدنيا بالمرأة الجميلة التي تغري، تذكير بهذه العلاقة، فكما أن الجمال فتنة تسلب الرجل عقله.

كأن الرجل لا يرى في جمال المرأة سوى تشوهه، فيحاول إصلاحه، أو تدميره، إذ يمارس معها سلوكاً سادياً "لأنها مصدر اللعنة، التي تعنف". وإذا به يشوهها، لأن صورته تظل في حكم الغياب باستمرار!

والمرأة هي الصامتة، والصمت هو الجسد الذي يستقطب ويغلي من الداخل. ولهذا كانت المرأة، التي تلتزم الصمت أكثر اشتهاء من قبل الرجل، لأنها أكثر تميزاً بما هو مطلوب منها، وموصوفة، ضمن إطار النص الديني، أو وفق منصوص عليه اجتماعياً، وتمت شرعنته. الصمت الأنوثي يشد ذكورية الرجل إليه، يستسلم لعنفوانيته. كان عليه يكون متلقياً لكلام هو جسد الرجل!

كأنها كانت اول من مارس الكلام، ولكن كلامها كان سلوكاً، عندما دشنت تاريخ البشرية، بالإقدام على الإقتراب من الشجرة المحرمة، وحوّلته باتجاه الأرض. وكأن سلوكها هذا كان كافياً لمنعها من كلام آخر، هو الفعل، هو الحركة.

وبقدر ما تمّ الربط بين جمال المرأة، وصمتها، كان الإغراء الأنوثي أكثر حضوراً، وجاذبية للرجل، وكانت قدرة الرجل على قراءة هذا الجمال الصامت المسكون باللعنة، والصمت الذي يمتزج بالجمال، أكثر فاعلية، وكانت تأديته لمهمته ناجحة أكثر. كأن هناك علاقة عكسية بين صمت المرأة المتنامي، وتنامي سلطة الرجل، واقتحامه أكثر لعالمها الجسدي، وتطويعها لعالمه.

إن واقع الصمت يتناسب مع واقع الكلام المسيّس. وليس الحكم على المرأة بأن تكون التابعة كلامياً، سوى التعبير عن تفريغها من كل قوة تعبير عن حضورها الإجتماعي والإنساني. وترادف هنا قوامة الرجل على المرأة، قوامته عليها في كل ما يخصها، بحيث تكون مرآته التي فيها يرى صورته، كما يريد أن

تكون هذه الصورة. وهي لعنتها في مفهومها المتافيزيقي التي تحل في جسد (الآخر) جسد الغريب، الذي يحجب أن يُهذّب وينضبط باستمرار، لأن هذا الجسد لا يمكن التحكم فيه وبه...

والمرأة كجنس، هي كساحرة، وكلعوب، تحتاج دائماً إلى حزم، الى انضباطية، فهي قرينة الشيطان! إنها كساحرة، من خلال محاولاتها المستمرة خداع زوجها، ولهذا تحتاج إلى ضبط مستمر، وهي كلعوب، من خلال ما منحت من صفات وقدرات، تستطيع عبرها التحكم بالرجل (بزوجها) أو (ولي أمرها). ولعل صفة السحر واللعب، هي أثر من آثار النظرة القديمة الى المرأة، انغرست في شخصية (حواء) في جسدها، لأنها أغوت (آدم)، ثم تحول هذا المفهوم والتصورالأسطوري والديني، الى حقيقة معاشة في وعي الرجل. والكيد من المكيدة، من الحيلة التي تأسر الرجل وعياً وسلوكاً، وتغيّر في شخصيته، ليكون (عبداً جنسياً) لها.

والمرأة، هي الآخر، الشفاهة، الصمت الذي يعبّر عنه بكلام يصادرها من حقيقتها، ويصادر عليها، هي اللاكتابة، لأنها اللغة المتنحية، وربما المطرودة، التي غيّبت وأصبحت خارج التاريخ... وكأن اللعنة ترادف هنا تجريدها من كل إمكانات الدفاع عن نفسها، ومحولها من كل خصوصية... لأنها لا تتكلم إلا بلسان مستعار، لا يُعبر عن ذاتها، إنما يكبح جماحها، ويمارس سياسة الإبقاء والإقصاء (إبقاء الكائن المفهوم الناقص في داخلها، وإقصاء الإنسان المتميز عنها).

إنها الآخر (حواء) التي تعتبر مصدر لعنة، وساكنة فيها، ومسكونة بها، ومنبع الخطايا، وهي الآخر (الكائن الغريب المشبوه). وهي الشفاهة التي لا تتحضر! إلاّ في حضرة الرجل. والصمت الذي يفصح عن هويته، ولكن بهوية تصادر على ذاتها، تلحقها بهوية الرجل..

وهي اللاكتابة، إنها السطح الذي يتقبل كتابه الرجل. فجسدها هو فضاء تصورات الرجل، سطحه الأملس الذي يسطّر عليه وفيه الرجل ما يبتغي. حيث يكون محمولاً بحضوره. إنها تقابل هنا الكبت الذي لا يجرؤ على الإفصاح عن حقيقته. الهامش الذي يغيب عن كل معنى.

إن جسدها يشكل المجال الحيوي الذي تنبعث منه الكتابة الذكورية. على اعتبار أن جسدها لا يتمتع بحريته الجنسية في استقلال عن القانون والنظام والمؤسسة التي تستمد سماتها ومعاييرها من المطلق واللاهوت، هكذا يتداخل الجسدي والقدسي في البنية العربية الإسلامية بشكل كبير. ويتخذ

هذا القدسي من جسد المرأة حقلاً للتقنين والكتابة من أجل ضبط خلقها وإبداعها[47].

خاتمة

في الخاتمة نود التذكير بما انطلقنا به من البداية، عندما بينا بأن الجنس ارتبط بالممارسة الجنسية، وعمل على تأكيد تبعية المرأة للرجل. وكأن حواء التي قدّر لها أن يجامعها آدم، وتتلاشى بين يديه، في محيط رغبته الذكرية، أصبحت هنا أكثر من حواء يخضعهن الرجل لسلطته الجسدية – يقتحم فراغهن المتافيزيقي، ويلاحق الشيطان فيه، وهو في الجنة! ... وهكذا يبرز الجنس ممنوعاً من التعبير عن حضوره الأنثوي إلا هامشياً، وممنوعاً من الإفصاح عن هويته وملحقاً به في فراغ ومدار الرجل بالمطلق[48].

فالعربي مثله مثل غيره مصاب بورم الجنس... وكل ثورة تجعل الجنس على هامش دعوتها لا تؤدي إلى تغيرات ثورية في واقع الأمور...إن الأرض العربية حبلى بألوف المشكلات والعاهات التاريخية ... ولكن مشكلة الجنس هي رأس الأفعى وما لم يقطع هذا الرأس فسيبقى جسد العربي وفكره وسلوكه وعلاقته بالحياة والأشياء جسدا متورما وواقعا تحت مورفين الرغبات. فما لم نتصالح مع أجسادنا وما لم نقص أظافر الجنس الطويلة ونحوله من حيوان بري الى عصفور منزلي أليف فسوف نبقى في بئر الجنس الى ما شاء الله ... وتبقى قضية الجنس مفتوحة على مصراعيها.

المراجع

1. الأب جرجس داود (1981). أديان العرب قبل الإسلام ووجهها الحضاري والاجتماعي. المؤسسة الجامعية، بيروت.
2. ابن حزم الأندلسي (د.ت). طوق الحمامة. مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت.
3. بندلي صليبا الجوزي (1977). دراسات في اللغة والتاريخ الإقتصادي والإجتماعي عند العرب. جمع وتقديم جلال السيد وناجي علوش، دار الطليعة، بيروت.

47 – محمد نور الدين أفاية، "المرأة والكتابة" في مجلة: الوحدة، العدد 9، ص 67.

48 – لا بدّ إذاً من وعي واستيعاب حقيقة (هو الذي خلقكم من نفس واحدة)، يمثل الرجل والمرأة طرفي المعادلة المتكافئين. لا بدّ إذا من خلخلة الكتابة التي تنطلق من سلطة الذكورية، وتنطق بها. ولا بدّ من الإفصاح عن الجنس في بعده الإنساني، إذا أردنا أن يكون للإنسان حضوره الإنساني، لإيجاد الرجل المتوازن والمرأة المدركة لذاتها... و(لا يمكن تصور وضعية للمرأة، راقية ومتحررة، في إطار أيديولوجية دينية خاضعة لسلطة ذكرية، يتجلى هذا الوضع، وينعكس في قوانين ومواد الأحوال الشخصية...) كما يقول عبد الواحد الفقيهي، أنظر مقالته "الجنس... بين التحريم والكتابة"، مجلة دراسات عربية، العدد 4 (1988)، ص 4.

4. بول فريشاور (1988). الجنس في العالم القديم. ترجمة فائق دحدوح، ط1 ، دار الكندي، الحضارات الشرقية، دمشق
5. خليل أحمد خليل (1985). المرأة العربية وقضايا التغيير: بحث اجتماعي في تاريخ القهر النسائي. ط 3، دار الطليعة، بيروت.
6. سيد محمود القمني (1993). الأسطورة والتراث. ط 2، سينا للنشر، القاهرة.
7. صموئيل كريم، اينانا ودو موزي (1986). طقوس الجنس المقدس عند السومريين. ترجمة نهاد خياطة، ط1، سومر للدراسات والنشر والتوزيع، قبرص.
8. عبد الغني زيتوني(1987). الوثنية في الأدب الجاهلي. منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق.
9. علي الشوك (1987). اهتمامات ميثولوجية واستطرادات لغوية. مجلة الكرمل، العدد 26.
10. فاطمة المرنيسي (1990). الحريم السياسي: النبي والنساء. ترجمة عبد الهادي عباس، ط 1، دار الحصاد، دمشق.
11. فراس سواح (1976). مغامرة العقل الأولى: دراسة في الأسطورة. أرض الرافدين، ط 1 اتحاد الكتاب العرب، دمشق.
12. فراس سواح، لغز عشتار(1985). الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة. سومر للدراسات والنشر والتوزيع، قبرص.
13. فيليب كامبي(1992). العشق الجنسي المقدس. ترجمة عبد الهادي عباس، ط 1، دار الحصاد، دمشق.
14. كون ا.س.(1992) . الجنس والثقافة. ترجمة منير شحود، ط 1، دار الحوار، سورية.
15. النفزاوي (1990). الروض العاطر في نزهة الخاطر. بيروت، رياض الريّس للكتب والنشر، لندن.
16. هـ. فرانكفورت وآخرين (1980). ما قبل الفلسفة. ترجمة جبرا ابراهيم جبرا، ط 2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
17. هشام قبلان(1983). آداب الزواج في الإسلام. منشورات عويدات – بحر المتوسط، باريس، بيروت.